

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الأبعاد السياسية لنشأة النحو

مقبل بن علي الدعدي
معيد في جامعة أم القرى

ملخص البحث :

تذكر الروايات أن النحو العربي قد نشأ بقرار سياسي من خليفة المسلمين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه حينما أمر أبا الأسود الدؤلي بوضع هذا العلم ، وكان قرارًا موفقًا صائبًا شهد بذلك علماء الأمتين العربية، والإسلامية ، وغيرهم ممن اطلع على التراث العربي .
حقق هذا القرار أهدافا، ومكاسب للدولة الإسلامية على أصعدة عدة، وجوانب مختلفة ثقافية، اجتماعية، سياسية .

تقوم فكرة هذا العمل على إلقاء الضوء على الأبعاد، والمكاسب السياسية التي أنجزها قرار نشأة النحو العربي من خلال ثلاثة محاور:

الأول: المحافظة على الهوية .

الثاني: الوحدة ، والترابط.

الثالث: العدل، والمساواة.

و تعد هذه النقاط من أوجب واجبات السياسي ، و من أولى أولياته يجب عليه السعي لتحقيقها، وبذل الجهد في توفيرها. ولا يعني ذلك أن هذه الأمور لم تكن من اهتمامات الخلفاء الراشدين قبل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقبل نشأة النحو، بل سيقف البحث على نصوص للخلفاء الراشدين، ومن قبلهم الرسول- صلى الله عليه وسلم- تدل على الإحساس بهذه الأبعاد ، والدأب في تحقيقها، ولكن النحو العربي – كما سيبين البحث- هو أهم أسباب استمراريتها، وخلودها على مر العصور، فالنحو العربي يشكل منعطفًا بالغ التأثير في تاريخ اللغة العربية.

يهدف البحث لإتصاف النحو العربي، والذب عن النحاة الأوائل الذين بذلوا الغالي النفيس في جهد لا يعرف الكلل، وعزم لم يثنه مثل من أجل تحقيق أهداف نبيلة، محافظة على اللغة العربية لغة دينهم، وشرحها، وتعليمها ، ونشرها وقد حققوا الهدف الذي راموه، والغاية التي نشدوها. و إن من الخلل المنهجي محاكمتهم على منهج لم يتبعوه؛ لنشأته في عصور متأخرة، أو لأنه لا يوصلهم لهدفهم، ولا يحقق مطلوبهم .

ولعل في البحث ما يحفز أصحاب القرار على الاهتمام بلغتهم، والعناية بها، ونشرها ، أسوة بما يفعله كثير من السياسيين في مختلف أنحاء العالم تجاه لغاتهم، وسيذكر البحث نماذج على ذلك.

"الجمهور من أهل الرواية على أنّ أول من وضع النحو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب- كرم الله وجهه- قال أبو الأسود الدؤليّ رحمه الله:

دخلت على أمير المؤمنين عليّ- عليه السلام- فرأيتَه مطرقاً مفكراً؛ فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ فقال: سمعت ببلدكم لحناً، فأردت أن أصنع كتاباً في أصول العربية. فقلت له: إن فعلت هذا أبقيت فينا هذه اللغة العربية، ثم أتيتَه بعد أيام، فألقى إليّ صحيفة فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم. الكلام كلّ اسم وفعل وحرف؛ فالاسم ما أنبأ عن المسمّى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمّى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل، ثم قال: تتبّعه وزد فيه ما وقع لك. واعلم أن الأشياء ثلاثة: ظاهر، ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر؛ وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بمضمر ولا ظاهر. فجمعت أشياء وعرضتها عليه، فكان من ذلك حروف النصب، فذكرت منها: إنّ، وأنّ، وليت، ولعلّ، وكأنّ. ولم أذكر لكنّ، فقال: لم تركتها؟

فقلت: لم أحسبها منها. فقال: بلى هي منها، فزدها فيها" إنباه الرواة على أنباه النحاة (1 / 39) .

تُعد هذه الرواية الأشهر في نشأة النحو، وهي كما حكى القفطي رواية الجمهور.

هذا القرار الذي صدر من خليفة المسلمين حينما أدرك خطر اللحن، وأراد حفظ العربية له أبعاد، ومكاسب اجتماعية، واقتصادية، وسياسية، ولغوية، ودينية، وقد أشبع العلماء البعدين الديني، واللغوي دراسة وبحثاً، وبقي البعدان الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي دون دراسة - فيما أعلم- أو في أحسن الأحوال لم يأخذوا نصيبهما من البحث، والدراسة، وما هذه الورقة إلا محاولة للكشف عن أبرز المكاسب السياسية التي جنتها الأمة الإسلامية من وراء هذا القرار الراشد.

ويحسن قبل الدخول في الأبعاد السياسية أن أذكر بعض التنبيهات :

التنبية الأول:

وصفنا هذه الأبعاد بالسياسية؛ لتمييزها عن الأبعاد الاجتماعية، والاقتصادية، والدينية المباشرة، وهي المتعلقة بالأحكام، والعبادات، والكتاب، والسنة، وإلا في الحقيقة السياسة من الدين، والإسلام من مقاصده تنظيم الدنيا بالدين، فقصدنا -هنا- بالسياسية تمييزاً لا فصلاً من باب قوله تعالى: " { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } [البقرة: 238]

وتمّ أمر يبرر وصفنا لهذه الأبعاد بالسياسية وهو أننا لو تأملنا هذه الأبعاد لوجدناها محل نظر السياسيين على اختلاف دياناتهم ، ومذاهبهم يولونها اهتماماً، ويسعون في ترسيخها.

التنبية الثاني :

ربطنا هذه الأبعاد بالنحو، ونشأته ؛ لأنه السبب في استمرارها، وديمومتها ، وله الفضل في حفظ العربية من الضياع كما قال أبو الأسود لعللي بن أبي طالب: إن فعلت هذا أبقيت فينا هذه اللغة العربية، وكذلك هو السبب في نشرها، فلم يعد هناك سبيل إلى تعلمها إلا عن طريقه.

ولا يعني ذلك عدم وجود هذه الأبعاد قبل نشأة النحو، أو أنها لم تكن من قبله داخله في اهتمامات سياسي الدولة الإسلامية، بل العكس تماماً، وسنذكر نصوصاً تبين وجود هذه الأبعاد، وتؤكد على أنها من أولوياتهم.

التنبية الثالث:

يجب أن أؤكد على أنني لا أدعي أن هذه الأبعاد هي السبب الذي جعل خليفة المسلمين علي بن أبي طالب يصدر هذا القرار ، فالسبب قد ذكر في الرواية السابقة وهو تعليم العربية، وحفظها، ومن الخلل المنهجي أن نقرأ الروايات التاريخية، ونسقط عليها أفكارنا، ونحملها ما لا تحتمل، فالباحث على اختلاف تخصصه الاجتماعي، أو السياسي، أو اللغوي أن يستنبط من التاريخ، والروايات ما ظهر له، وما تحتمله هذه الروايات، لكن عليه الحذر أن يجعل هذا الاستنباط هو المحرك، والدافع لها، أو أنها هي الأسباب وراء تلك الظاهرة، أو هذه الحادثة، و قد تكون هذه الأفكار لم تخطر ببال أبطال تلك الروايات.

من خلال هذه التنبهات أتمنى أن أكون قد وُفقت في شرح المراد بالأبعاد السياسية، وربطها بنشأة النحو، وأزلت ما في ذلك من لبس .

البُعد الأول: الحفاظ على الهوية :

تعد اللغة من أهم مرتكزات الهوية، فالهوية هي الامتياز من الأغيار، أي ما يميز الشخص من غيره، وهي هوية فردية، أما ما يميز الجماعة من الجماعات الأخرى فهي هوية جماعية، وما يميز الوطن من الأوطان والقوميات فهي هوية وطنية أو قومية " عيسى رهومة/ سؤال اللغة: الهوية زمن التحولات/ص155

إن اللغة ليست أداة إتصال فحسب، بل هي مستودع لتاريخ الأمم، ولثقافتها، وهي كذلك بمثابة التعريف بالشخص فاللغة كما يقول يقول تراسك: " أداة بالغة القوة للإعلان عن هوية شخص ما، والحفاظ عليها " السابق ص 172 و " الناس يعرفون أنفسهم من خلال النسب، والدين، واللغة، والتاريخ، والقيم والعادات، والمؤسسات الاجتماعية " صامويل هنتنجتون/ صدام الحضارات/ ص 39

وبضدها تتميز الأشياء، فاللغات مختلفة لكل قوم لغة، فمن هنا أصبحت مظهرًا من مظاهر تمييز الأقسام وقد جعل الله عز وجل اختلاف اللغات آية من آياته جلّ في علاه: {مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِذَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ} [الروم: 22]

و قد ازداد اهتمام العرب بلغتهم، واعتزازهم بها بعد أن أصبحت اللغة الدينية ، ونزل بها القرآن الكريم ، وأصبحت اللغة الرسمية للدولة الإسلامية، و صارت جزءً من هوية الأمة الإسلامية، فلا تكاد تذكر اللغة العربية إلا مع استحضار الأمة الإسلامية ، والعكس . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " إن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميرون " ابن تيمية/ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم/ ت ناصر العقل/ ص 462

أولى الدين الإسلامي مسألة الهوية مزيد اهتمام، وعناية نجد ذلك فيما يسمى في الفقه الإسلامي ب "النهى عن التشبه بالكفار" في عباداتهم، وأعيادهم، وطريقة أكلهم، وملابسهم، وتفاصيل ذلك في كتب الفقه، والعقيدة ، إنما الغرض هنا أن نبين أن ديننا الإسلامي فكك الهويات القائمة قبله، وأعاد تركيبها بما يتوافق مع العقيدة الإسلامية،

والدين الجديد، ولم يهمل الهوية كما يُظن، ولا أدل على ذلك من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " من تشبه بقوم فهو منهم " سنن أبي داود (4 / 44) / المكتبة الشاملة.

فهذا الحديث يبين أن لكل قوم صفات تخصهم، و تميزهم، لا يشاركونهم غيرهم فيها، وأن التقليد إتباع، وعلى الأمة الإسلامية الحذر من إتباع الكفار في تقاليدهم، وعاداتهم فضلاً عن عقيدتهم، وعليها أن تعتر بعقيدتها، وثقافتها. وسأعرض فيما يلي صور الحفاظ على الهوية اللغوية في الدولة الإسلامية:

- الحث على تعلم العربية :

وهذه الصورة وقائعها أكثر من أن تُحصى، فقد فاضت بها كتب السير، والأخبار، والآثار وسأكتفي بعرض نماذج تبين مقدار الهم الذي حملته قادة الدولة الإسلامية في نشر اللغة العربية، وتعليمها :
من ذلك أمرُ الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة بتعليم من لحن بحضرته ، فقال لهم : " أرشدوا أحاكم فقد ضل " سُمي الرسول صلى الله عليه وسلم اللحن ضلالة، وكلف من كان عنده من الصحابة بتعليم أخيه المخطئ ، وإرشاده للطريقة الصحيحة في الكلام.

ولعل أبرز من أثر عنه الحث على تعلم العربية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد روي عنه أنه قال: "تعلموا العربية؛ فإنها تثبت العقل وتزيد في المروءة"

وروي أنه رضي الله عنه " سمع رجلاً يتكلم الفارسية في الطواف فقال: ابتغ إلى العربية سبيلاً "

وقد كتب عمر رضي الله عنه خطاباً إلى أبي موسى الأشعري يحث فيه الأمة إلى تعلم العربية يقول فيه: " أما بعد فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعرّبوا القرآن، فإنه عربي "

وفي فتوى ابن تيمية التالية ما يغني عن كثير من الروايات التي تؤكد على أهمية تعليم العربية ، ونشرها، وقد ذكر أن تعلمها تارة يكون واجباً، وأخرى ينزل إلى الاستحباب يقول: " وَمَعْلُومٌ أَنَّ " تَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ؛ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ " فَرَضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ؛ وَكَانَ السَّلْفُ يُؤَدِّبُونَ أَوْلَادَهُمْ عَلَى اللَّحْنِ. فَنَحْنُ مَأْمُورُونَ أَمْرَ إِجَابٍ أَوْ أَمْرَ اسْتِحْبَابٍ أَنْ نَحْفَظَ الْقَانُونَ الْعَرَبِيَّ؛ وَنُصَلِّحَ الْأَلْسُنَ الْمَائِلَةَ عَنْهُ؛ فَيَحْفَظُ لَنَا طَرِيقَةَ فَهْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ وَالْإِقْتِدَاءِ بِالْعَرَبِ فِي خَطَائِبِهَا. فَلَوْ تُرِكَ النَّاسُ عَلَى لِحْنِهِمْ كَانَ نَقْصًا وَعَيْبًا " مجموع الفتاوى (32 / 252) / المكتبة الشاملة.

وقال في موضع آخر: " إن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ثم منها ما هو واجب على الأعيان، ومنها ما هو واجب على الكفاية" اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم/ ص 469

فقدادة الدولة الإسلامية من ساسة، وعلماء يجمعون على الحث على تعلّم العربية، وتعليمها، وما عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وابن تيمية رحمه الله إلا نموذجان للتمثيل فقط.

- النهي عن التحدث بغير العربية:

كما أنه أمر بتعلّم العربية، والتحدث بها؛ ليظهر شعار الإسلام كذلك تُهي عن التحدث باللغات غير العربية، والتراطن بها، وهو داخل فيما ذكرناه سابقًا من النهي عن التشبه بالكفار، فهذه صورة من صورته، وهي التشبه بهم في لسانهم، ومما جاء في النهي عن التعليم؛ ليحدّوا من انتشار أية لغة تنافس، وتزاحم العربية في الدولة الإسلامية قول عطاء: " لَا تَعَلَّمُوا رَطَانَةَ الْأَعَاجِمِ، وَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ كَنَائِسَهُمْ، فَإِنَّ السَّحَطَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ " مصنف ابن أبي شيبة (5 / 299)/ المكتبة الشاملة.

واسمع ما رواه " إسماعيل بن عُليّة، عن دواود بن أبي هند: أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ سَمِعَ قَوْمًا يَتَكَلَّمُونَ بِالْفَارِسِيَّةِ، فَقَالَ: «مَا بَالُ الْمَجُوسِيَّةِ بَعْدَ الْحَنِيفِيَّةِ» السابق.

وفيه دلالة واضحة على إعلان الهوية من خلال اللغة، وكذلك ما تحمله اللغة من فكر، والارتباط الوثيق بينهما، فقد ربط العربية بالإسلام؛ لأنه عُرف بها، ودوّن بمفرداتها، وكذلك الحال المجوسية، مع الفارسية.

وللعربية أحكام فقهية تدور حولها آراء العلماء، واجتهاداتهم، تحتاج إلى جمع ودراسة، واستنباط علل هذه الأحكام، ولكن "في الجملة: فالكلمة بعد الكلمة من العجمية، أمرها قريب، وأكثر ما يفعلون ذلك إما لكون المخاطب أعجميا، أو قد اعتاد العجمية، يريدون تقريب الأفهام عليه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأُم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص - وكانت صغيرة قد ولدت بأرض الحبشة لما هاجر أبوها، فكساها النبي صلى الله عليه وسلم خميصة وقال: «يا أم خالد، هذا سنا» والسنا بلغة الحبشة: الحسن

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال لمن أوجعه بطنه: " أشكم بدرد " وبعضهم يرويه مرفوعا، ولا يصح. وأما اعتياد الخطاب بغير اللغة العربية - التي هي شعار الإسلام ولغة القرآن - حتى يصير ذلك عادة للمصر وأهله، أو

لأهل الدار، أو للرجل مع صاحبه، أو لأهل السوق، أو للأمرء، أو لأهل الديوان، أو لأهل الفقه، فلا ريب أن هذا مكروه فإنه من التشبه بالأعاجم" اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم/ص 467

- العربية لغة رسمية للدولة الإسلامية:

من صور الحفاظ على الهوية اللغوية في الدولة الإسلامية جعلها اللغة الرسمية، فمنذ اللحظة الأولى لبناء الدولة الإسلامية في المدينة صيغت الوثيقة فيها باللغة العربية، وكتبت بها، ويكاد يجمع الباحثون ألا خلافة إسلامية إلا يجعل العربية اللغة الرسمية، فالعربية منذ نزول القرآن الكريم بها ارتبطت ارتباطاً لن ينفك بالإسلام، ودولته، ومما أخذ على الخلافة العثمانية في آخر عهدها تهميش العربية، وهذا يتنافى مع ما حملوه من أمانة حفظ الأمة، وتراثها، وهويتها، يقول ابن تيمية: " وَمَا زَالَ السَّلْفُ يَكْرَهُونَ تَغْيِيرَ شَعَائِرِ الْعَرَبِ حَتَّى فِي الْمَعَامَلَاتِ وَهُوَ " التَّكَلُّمُ بِعَيْبِ الْعَرَبِيَّةِ " إِلَّا لِلْحَاجَةِ كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ بَلْ قَالَ مَالِكٌ: مَنْ تَكَلَّمَ فِي مَسْجِدِنَا بِعَيْبِ الْعَرَبِيَّةِ أُخْرِجَ مِنْهُ. مَعَ أَنَّ سَائِرَ الْأَلْسِنِ يَجُوزُ النُّطْقُ بِهَا لِأَصْحَابِهَا؛ وَلَكِنْ سَوَّغُوا لِلْحَاجَةِ وَكْرَهُوا لِعَيْبِ الْحَاجَةِ وَلِحِفْظِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ كِتَابَهُ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَبَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ الْعَرَبِيَّ وَجَعَلَ الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ خَيْرَ الْأُمَمِ فَصَارَ حِفْظُ شِعَارِهِمْ مِنْ تَمَامِ حِفْظِ الْإِسْلَامِ " مجموع الفتاوى (32 / 255)

انظر كيف جعل ابن تيمية - رحمه الله - حفظ شعار الإسلام (اللغة العربية) من تمام حفظ الإسلام، فعلى كل مسلم السعي في حفظ شعار الإسلام، والاعتزاز بهويته حسب استطاعته، ويجب على رؤساء الدول الإسلامية أن يتأملوا كلام ابن تيمية السابق، ويضعوه في حسابهم عند سنّ القوانين.

و إن من صور الحفاظ اللغة الرسمية للدولة معاقبة من يلحن فيها، فمجال اللغة الرسمية يختلف عن مقام اللغة التواصلية المبني على التسامح، وقد أصدر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أمراً إلى عامله

أبي موسى الأشعري حينما أخطأ كاتبه، فكتب من أبو موسى، وقد جاء الأمر فوراً من خليفة المسلمين - رضي الله عنه - بجلد الكاتب، وعزله " : إذا أتاك كتابي هذا، فاضرب كاتبك سوطاً، واعزله عن عمله".

هذا الخطأ البسيط في نظرنا، والذي لا يغير في المعنى شيئاً جعل الخليفة يصدر هذا الحكم الصارم؛ لأن اللغة الرسمية يجب أن تكون خالية من اللحن، وأن يُعنى بها، ويختار لصياغتها الأكفاء، فهي هوية الدولة.

وقريب من صنيع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- ما قامت به الحكومة الفرنسية ف " للحفاظ على هذه اللغة - أي الفرنسية- داخل فرنسا، قامت السلطات بفرض غرامة مالية على من يتحدث بغير الفرنسية، أو يستخدم لغة غير الفرنسية في الإعلان والإعلام، وفي لافتات المحال وفي الاتفاقيات " عيسى رهومة/ سؤال اللغة: الهوية زمن التحولات/ ص170

وإن شئت قارن صنيع خليفة المسلمين عمر بن الخطاب بما يصنعه رؤساء الدول الإسلامية، و ما يذكره بعض الباحثين من أن العربية وهي اللغة الرسمية في الأمم مهددة بإلغاء رسميتها؛ لأسباب ثلاثة:

الأول: عدم استعمال ممثلي الدول اللغة العربية في الأمم المتحدة، العربية فهم يستعملون الإنجليزية أو الفرنسية.

الثاني: عدم وجود مترجمين عرب أكفاء يجيدون اللغة العربية.

الثالث: عدم وفاء معظم الدول العربية بالتزاماتها المتعلقة بدفع نفقات استعمال العربية في المنظمة. اللغة والهوية في معركة الحضارة/ محمد محمد داود / ص 13

وكل هذه الأسباب تعود إلى تخاذل السياسي، وعدم حملة للأمانة، وتساهله في الحفاظ على شعار الأمة. لن أستمّر في ذكر المقارنات، أو الواقع؛ لأنه مرير، ويبعث للتشاؤم، وهو معلوم مشاهد لا يفتقر إلى مزيد بيان، ولنعود إلى الجانب المشرق في حياة الأمة، ومنجزات سلفنا لا للتغني بتلك الأمجاد فقط، بل لإبراز النماذج التي يجب أن نحذو حذوها، ونستلهم من تجاربهم الروح، والعزيمة، والإصرار على النجاح.

فمن تلك الصور الرفيعة، والنماذج العالية، حركة تعريب الدواوين، فهي خير دليل على الاهتمام باللغة العربية، وجعلها اللغة الرسمية، لغة المعاملات، لغة الدولة في جميع شؤونها.

ولأهمية هذه الحركة سأفرد لها في نقطة مستقلة .

- حركة التعريب:

صاحبت الفتوحات الإسلامية حركة تعريب على كافة المستويات، وهذا غير مستغرب فالعربية كما ذكرنا والإسلام مقترنان، فالمسلم لا غنى له عن العربية . وقد سعى المسلمون العرب إلى تعريب، وتعليم إخوانهم ، وكذلك نجحوا في تعريب المؤسسات، فقد حوّل عبد الملك بن مروان الدواوين في العراق، والشام عندما وجد من يستطيع القيام بهذه المهمة باللغة العربية، يقول المارودي: " نقل - أي عبد الملك بن مروان - ديوان الشام إلى العربية سنة إحدى وثمانين " الأحكام السلطانية للمارودي (1 / 301) المكتبة الشاملة.

وقد ذكر السبب في نقله إلى العربية حيث يقول: "وكان سبب نقله إليه ما حكاه المدائني: أنّ بعض كُتّاب الروم في ديوانه أراد ماء لدواته فبال فيها بدلاً من الماء فأدّبه، وأمر سليمان بن سعد أن ينقل الديوان إلى العربية، فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة، ففعل وولاه الأردن، وكان خراجه مائة وثمانين ألف دينار، فلم تنقض السنة حتى فرغ من الديوان فنقله، وأتى به إلى عبد الملك بن مروان، فدعا سرجون كاتبه فعرضه عليه، فغمه وخرج كئيباً؛ فلقبه قوم من كتاب الروم فقال لهم: اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة، وقد قطعها الله عنكم " السابق.

" وأما ديوان الفارسية بالعراق فكان سبب نقله إلى العربية أنّ كاتب الحجاج كان يسمّى زاذان فروخ، كان معه صالح بن عبد الرحمن يكتب بين يديه بالعربية والفارسية، فوصله زاذان فروخ بالحجاج فخفّ على قلبه، فقال صالح لزاذان فروخ: إن الحجاج قد قرّبني ولا آمن عليك أن يقدمني عليك، فقال: لا تظن ذلك فهو إليّ أحوج مني إليه؛ لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيري، فقال صالح: والله لو شئت أن أحوّل الحساب إلى العربية لفعلت، قال: فحوّل منه ورقة أو سطرًا حتى أرى ففعل، ثم قتل زاذان فروخ في أيام عبد الرحمن بن الأشعث، فاستخلف الحجاج صالحًا مكانه، فذكر له ما جرى بينه وبين زاذان فروخ، فأمره أن ينقله، فأجابته إلى ذلك وأجله فيه أجلًا حتى نقله إلى العربية، فلمّا عرف مردان شاه بن زاذان فروخ ذلك بذل له مائة ألف درهم؛ ليظهر للحجاج العجز عنه فلم يفعل، فقال له: قطع الله أوصالك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية، فكان عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان يقول: لله در صالح ما أعظم منّته على الكتاب " السابق.

وقد تمت حركة التعريب رغم محاولات الفرس للوقوف أمامها، وهذه الأسباب التي ذُكرت ما هي إلا أسباب تعجيل حركة التعريب، وتنفيذه في ذلك الوقت، وليست هي السبب في التعريب التي لولا وقوعها لما حدث التعريب، فإن التعريب سياسية عليا في الدولة تسعى إلى تنفيذه ما أمكن إلى ذلك سبيلا.

و تجاوز الأمر من تعريب المؤسسات الرسمية إلى تعريب العلوم، و ما حركة الترجمة إلا دليل على ازدهار العربية، فهي لغة العلم في تلك العصور، فقد بدأت الحركة " أيام خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى في عام 85هـ بنقل كتب الطب، والكيمياء " بواكير الثقافة الإسلامية وحركة النقل والترجمة/عصام الدين محمد علي/ص4

وانظر إلى ما ذكره المؤرخ المصري محمد عبدالله عنان من تأثر الأسباب بالثقافة الإسلامية يقول: " هذا، وقد كان يأسر الشباب النصراني مظهر العظمة المادية والحضارية، التي تفوقت بها قرطبة المسلمة على قرطبة النصرانية، وما كانت تقتزن به هذه العظمة من المظاهر الأدبية والفنية، التي بثها عبد الرحمن بحبه للشعر والفلسفة والموسيقى. وكان من مظاهر تأثر الشباب النصراني أنهم كانوا يكتبون ويتكلمون العربية، محقرين دراسة اللغة والآداب اللاتينية، وهو أمر كان شديد الخطر على وطنيتهم ودينهم. وفي النصف الأول من القرن التاسع، لم تكن اللغة والآداب العربية فقط، بل وكانت الأفكار والتقاليد الإسلامية، قد انتشرت بين المستعربين الإسبان " دولة الإسلام في الأندلس (1 / 269) / المكتبة الشاملة

ومن المعلوم بالضرورة أن هذا لم يكن لولا حركة التعريب الشاملة على مستوى الأفراد، والمؤسسات التعليمية، والحركات العلمية.

إنّ الترغيب في تعلّم العربية، ونشرها، والترهيب في التحدث بغيرها، والمحافظة على اللغة الرسمية، وحركة التعريب مظاهر، وصور تؤكد مدى حرص قادة الأمة الإسلامية على الهوية اللغوية، ودفع كلّ ما من شأنه طمسها، أو خفوتها، فكان لا بد من إيجاد طريقة لتعليم، ونشر العربية، وهذا ما أمر به خليفة المسلمين، واستنفر له علماء الأمة.

- البعد الثاني: الوحدة، والترابط.

يربط بعض الباحثين ما بين الوحدة اللغوية، ووحدة الأمة، وترابطها، ويجعلون من أسباب الانقسام، واختيار الأمة، وتمزيقها إلى دويلات، أو قوميات مختلفة = التعددية اللغوية في الدولة الواحدة، وهي سبب لقيام النعرات القومية، والعصبيات الجاهلية، وقد يسميها بعض الباحثين " حروبًا لغوية " ومن استقرأ التاريخ، وحضارات الأمم، وجد شواهد على ذلك، وقبل أن أذكر بعض النماذج التي تدل على العلاقة بين الوحدة اللغوية، ووحدة الدولة، أو الأمة

أشير إلى أنه قد تكون هناك موانع لحدوث الانفصال في الدول متعددة اللغة، وفي المقابل قد تمزق دول لغتها واحدة،" فللدولة صفاتها التي تحددها القوانين السياسية العالمية التي انبثق منها القانون الدولي العام، وأسست لها المحاكم الدولية. في حين أنه ليس للقوميات في العالم قوانين وضعية تنظم شئونها أو تحكم بينها، وقد حدثنا التاريخ عن دولة تضم عدة قوميات، كما حدثنا عن قومية واحدة وُزع أبنائها بين عدة دول، وترتب على هذا نزاع وصراع وسفك دماء" إبراهيم أنيس/ اللغة بين القومية والعالمية/ ص 108

من النماذج على ذلك ما حدث لدولة الخلافة العثمانية، الأمة الإسلامية حينما زحزحت شعار الإسلام اللغة العربية، والتي لا يختلف المسلمون في حبها، ويجمعون في إجلالهم لها " فَلَمَّا بَجَدَدَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ عصبية اللُّغة، وَجَعَلَ التُّرْكُ العثمانيون لغتهم لُغة علم أرادوا أن يكرهوا الشعوب الإسلامية في سلطنتهم على ترك لغاتهم إلى لُغة الدولة فَاَمْتَنَعَ الْجَمِيعَ عَلَيْهِمْ، وَهَبَ أَصْحَابُ اللُّغَاتِ غير العلمية المُدَوَّنة كالألبانيين والكرد والجركس إلى تدوين لغاتهم وَجَعَلَهَا لُغة علم وفنون كَمَا فَعَلَ التُّرْكُ، وَقَدْ حَارَبَتِ الدولة الألبانيين وهم أعظم حصونها في أوروبا لأجل اللُّغة، فَاخْتَارُوا حربها وَالخُرُوجَ من سلطنتها على ترك لغتهم، وَلَوْ رَضِيَتْ لِنَفْسِهَا لُغة الإسلام ودعتهم إِلَيْهَا لما أَبَوَا، وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ هِيَ الَّتِي فَارَقَتْ بَيْنَ التُّرْكِ وَالْعَرَبِ ... وَكَيْفَ يَعْقِلُ أَنْ يَرْضَى الْعَرَبُ استبدال التركية بِالْعَرَبِيَّةِ الَّتِي شَرَفَهَا اللهُ على جَمِيعِ اللُّغَاتِ بكتابه المعجز للبشر وحثته عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" محمد رشيد رضا الخلافة (1 / 100) المكتبة الشاملة ونحن نؤكد هنا مرة أخرى أنه - قطعا- ليست اللغة هي السبب الوحيد، ولكنها من ضمن الأسباب كما ذكر علماء تلك المرحلة.

ومنها ما حدث في الهند من اقتتال، ونزاع، وسفك دماء بسبب اللغة، فبعد أن كانت اللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية المشتركة في ظل الاستعمار خلفتها لغات عدة تمثل القوميات في تلك البلاد، وقد رغب كل قوم في فرض لغتهم مما أدى إلى تجييش النفوس، واضطرابات، وقد نقل الدكتور إبراهيم أنيس صورًا من تلك الاضطرابات يقول: " في شهر أغسطس سنة 1967م نشرت الصحف خبرًا مؤسفًا لخصته في قولها: قُتِلَ خمسة وخمسون شخصًا خلال الاضطرابات العنيفة التي سادت طوال الأيام الأربعة الماضية في مدينة رانشي بولاية بيهار الهندية، بسبب نزاع لغوي نشب على إثر توزيع منشور في الولاية يعارض بشدة إدخال اللغة الأدرية كلغة رسمية ثانية بجانب الهندوستانية، وقد أعلن وزير البوليس الهندي أن 106 من الأشخاص قد أصيبوا، واعتقل 795 شخص " اللغة بين القومية والعالمية/

وقد ذكر صوراً عدة لن نطيل بذكرها، فالكتاب مطبوع متداول، بل تكفي الإشارة، والقصد الدليل الواقعي لما ذكرنا من تأثير اللغة على الوحدة.

أما النموذج الثالث فهو معاصر في هذا العصر، وهو النموذج الكندي، ما يعرف بقضية (الكيبك)، فكندا دولة فيدرالية تتكون من ولايات، ولم يشر القانون الدستوري لسنة 1867م إلى اللغة تاركاً ذلك للحكومات الفيدرالية، وقد أدى ذلك إلى تعارض، واختلاف بين الحكومات الإقليمية، والفدرالية، وظهرت قضايا الثنائية اللغوية، والحقوق اللغوية، والتي أدت إلى إقامة لجنة تحقيق في الثنائية اللغوية، والثقافية عام 1963م تهدف إلى وحدة الكلمة، وحفظ حقوق الشعبين داخل كندا، وقد وصل الحال بالكنديين المتحدثين بالفرنسية التهديد بالانفصال. انظر دليل السوسولسانيات/ فلوريان كولاس/ص 642 .

وقد استمر سنُّ القوانين بعد ذلك لحفظ الحقوق اللغوية للمتحدثين بالفرنسية مع قلتهم بالنسبة لمن يتحدث الإنجليزية. ولنختم هذه النماذج وهي كثيرة ببلجيكا، فقد ذكر الدكتور عبدالسلام المسدي أنها قد "تحولت 1993م من مملكة بلجيكا إلى دولة اتحادية تضم فلاندر في الشمال و فالونيا في الجنوب، أهل فلاندر يتكلمون الفلامنكية (الألمانية)، وأهل فالونيا يتكلمون الفرنسية. وما بينهما حرب كانت يومئذ باردة، ولم يمض عليها عقد ونص العقد حتى اشتعلت، فقد اندلعت في منتصف عام 2008م معركة سياسية أشرفت بالدولة البلجيكية الفيدرالية على التشطي، والانفلاق، وكان مدارها أن ذوي الأصول الفلامنكية قد ضغطوا على القيادة السياسية؛ كي تعجل بالإصلاحات التي تخفف من سطوة الحكم المركزي، وتعطي لسلطة الأقاليم صلاحيات إجرائية نافذة على رأسها توظيف جديد للتوازن اللغوي بين الفرنسية، والفلامنكية... وظل هاجس تقسيم الدولة البلجيكية إلى دولتين يراود كل السياسيين بالمجازبة، أو بالتنافر " العرب والانتحار اللغوي/ص 52-53

وكما تدل مصطلحات الصراع اللغوي، أو الحروب اللغوية على العلاقة ما بين اللغة، والسياسة، ووحدة الدول، نجد ما يؤكد ذلك في مصطلحات مقابلة، مثل: التحالفات اللغوية، فهناك تحالفات بين دول عدة السبب في تحالفها اللغة، ولعل أبرزها، وأقواها حضوراً ونشطاً (الفرانكفونية) التي تسعى إلى حماية اللغة الفرنسية، وثقافتها، وتضم خمساً وعشرين دولة. للاستزادة انظر الفرانكفونية والسياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب/ ترجمة وتعليق عبدعلي الودغيري ومنها كذلك (الأنجلوفونية) و(الإسبانوفونية).

وألمانيا تسعى إلى تحالف لغوي مع النمسا وسويسرا، وقد بذلت في ذلك أموالاً طائلة؛ لتحسين الألمانية. وفي أمريكا اللاتينية تحركات للتحالف اللغوي يطلق عليها(ميروكس)تضم البرازيل والأرجنتين وباراغواي، والأورغواي.

وبعد عرض هذه النماذج، والمصطلحات بشقيها حرب اللغات، وتحالفاتها، والتي تؤكد العلاقة بين وحدة اللغة، ووحدة الدولة تأتي إلى النموذج الإسلامي، وننظر كيف تعامل معها، فالدين الإسلامي كما هو معلوم دين عالمي، للناس كافة، عربهم وعجمهم، فكيف تجاوز هذه العقبة؟

جاءت نصوص كثيرة من الكتاب والسنة تؤكد مبدأ الوحدة، ونبذ الفرقة، والتركيز على جمع الكلمة يقول الله عز وجل: " {واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون } [آل عمران:

[103

ففي هذه الآية يأمر الله عز وجل المسلمين بالاعتصام بحبله، وينهى عن التفرق، ويذكرهم بنعمة الألفة، والمحبة التي غرسها بينهم بعد أن كانوا أعداء.

وفي آية أخرى قال تعالى: " {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الحجرات: 10].

والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً. هذا من جهة غرس مبدأ الأخوة الإيمانية بين المسلمين، ومن جهة أخرى حذر الشارع من كل قول، أو عمل ينافي هذا المبدأ، أو من شأنه أن يفرق الكلمة، ويزرع في النفوس الضغينة، ويشير الفتنة، فقد نهى الله عز وجل عن التنازع، والسخرية فقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [الحجرات: 11]

وانظر إلى تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم عندما تحدث مثل هذه العصبية الجاهلية، والتي جاء الإسلام لمحاربتها، وتصحيح مسارها، ففي صحيح البخاري: " حَدَّثَنَا عَلِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ عَمْرُو: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ - قَالَ سُفْيَانُ: مَرَّةً فِي جَيْشٍ - فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ» " (6 / 154) / المكتبة الشاملة.

هذه بين العرب أنفسهم، ومعلوم أن العرب قبل الإسلام كانوا في عداوات، وحروب طاحنة، بل كانت بين الأنصار: الأوس، والخزرج ثارات، وقد ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أن هذه العصبية من الجاهلية، ووصفها بأبشع الأوصاف؛ لأنها كذلك؛ ولتنفير النفوس منها.

وقد واجه الرسول صلى الله عليه وسلم حادثة أخرى، وقد عاجلها، وأحسن في ذلك، فعليه الصلاة والسلام كان يحرص على مبدأ الوحدة، والأخوة بين المسلمين، ففي صحيح البخاري "حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنِ الْمُعْرُورِ هُوَ ابْنُ سُوَيْدٍ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: رَأَيْتُ عَلَيْهِ بُرْدًا، وَعَلَى عُلَامِهِ بُرْدًا، فَقُلْتُ: لَوْ أَحَدَتْ هَذَا فَلَبِسْتَهُ كَانَتْ حُلَّةً، وَأَعْطَيْتَهُ ثَوْبًا آخَرَ، فَقَالَ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ كَلَامٌ، وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً، فَنِلْتُ مِنْهَا، فَذَكَرَنِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِي: «أَسَابَيْتَ فَلَانًا» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «أَفَنِلْتَ مِنْ أُمِّهِ» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ» قُلْتُ عَلَى حِينِ سَاعَتِي: هَذِهِ مِنْ كِبَرِ السِّنِّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبَسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا يُكَلِّفْهُ مِنَ الْعَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ، فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيَعِينْهُ عَلَيْهِ» (8 / 16): المكتبة الشاملة

فبهذه الطريقة، وبتروسيخ هذا المبدأ، قضى الإسلام على كل العصبيات، والقوميات التي من شأنها، أن تثير الفتنة، وتمزق الأمة.

أما ما يتعلق باللغة، فقد ذكرنا سابقًا أن العربية شعار الإسلام، وأنها ارتبطت بالإسلام ارتباطًا وثيقًا لا يمكن فصله عنها، كيف ودستور الأمة القرآن الكريم باللغة العربية، ورسول الإسلام عربي! مما جعل المسلمون يقبلون على تعلم العربية، وتعليمها، وقد اعتبروها لغتهم، وتبروا من لغاتهم الأصلية حتى قال أحدهم: «والله لأن أُهْجَى بالعربية، أحبُّ إليَّ من أن أمدح بالفارسية!» تنسب إلى أبي الريحان البيروني .

ساعد على ذلك مفهوم العروبة في الإسلام، فقد ذكرنا سابقًا أن الإسلام فكك هويات، وأعاد تركيبها، فالعروبة في الإسلام ليست عروبة النسب، وإنما هي عروبة اللسان، فمن تحدث بالعربية فهو عربي، لذلك قد جاء " عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: «جاء قيس بن حطاطة إلى حلقة فيها صهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وبلال الحبشي، فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هؤلاء؟ فقام معاذ بن جبل فأخذ بتلايبه، ثم أتى به النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقالته، فقام النبي صلى الله عليه وسلم مغضبا يجر

رداءه حتى دخل المسجد، ثم نودي: أن الصلاة جامعة، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: " أما بعد: أيها الناس، فإن الرب رب واحد، والأب أب واحد، والدين دين واحد، وإن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أم، إنما هي لسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي "، فقام معاذ بن جبل فقال: بم تأمرنا في هذا المنافق؟ فقال: " دعه إلى النار» . فكان قيس ممن ارتد فقتل في الردة هذا الحديث ضعيف، وكأنه مركب على مالك لكن معناه ليس ببعيد، بل هو صحيح من بعض الوجوه " اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم /410

وقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فجعل من ولد في الإسلام فهو عربي . "روى الحافظ أبو طاهر السلفي - في فضل العرب - بإسناده عن أبي شهاب الحنات حدثنا حبان بن موسى، عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي قال: " من ولد في الإسلام فهو عربي ". وهذا الذي يروى عن أبي جعفر: لأن من ولد في الإسلام، فقد ولد في دار العرب، واعتاد خطابها، وهكذا كان الأمر " السابق/ 408

هذا المعنى الجديد للعروبة ترسخ في أذهان قادة الدولة الإسلامية، فنجد الحجاج بن يوسف يؤكد على هذا المعنى، وينكر على من يقصر العروبة على النسب في قصة عاصم بن بحدلة، وهو " مولى بني كاهل، وكان يحيى بن وثاب مولى بني كاهل أيضا، وكان قارئاً يؤم بني كاهل، فلما قدم الحجاج قال: لا يؤمنكم إلا عربي، فوثبوا بابن وثاب وقالوا: نعزله عن الإمامة، فبلغ الحجاج ذلك فقال: ويحكم إنما قلت عربي اللسان. فأبى ابن وثاب أن يصلي بهم. " أنساب الأشراف للبلاذري (11 / 200) / المكتبة الشاملة

" فالعروبة إذن، ليست عرقاً، ولا نسباً، وإنما هي لغة، وآداب وتكوين نفسي وحضارة وولاء، وذلك كله أمر مكتسب، وليس وقفاً على التوارث المحكوم بنقاء الدم الجاري من الأصول إلى الفروع، وهذا الأمر المكتسب هو الذي نعبر عنه بالعرب... وهو ما حدث لأبناء الشعوب التي قطنت في الوطن العربي، من المحيط إلى الخليج " محمد عمارة/الجامعة العربية والجامعة الإسلامية/ ص154

تُظهر هذه النصوص بجملة ضرورة النحو العربي الذي جاء لحفظ العربية أولاً، ولتعليمها ثانياً، ونشرها؛ لتحقيق الوحدة ، والترابط بين أفراد الأمة، ووآد ما يغرس الشحنةاء في نفوس المسلمين . يقول أحمد شاكر: " في هذا - أي تعلم العربية - معنى سياسي وقومي جليل؛ لأن الأمة التي نزل بلسانها الكتاب الكريم يجب عليها أن تعمل على نشر دينها، ونشر لسانها، ونشر عاداتها وآدابها: بين الأمم الأخرى، وهي تدعوها إلى ما جاء به نبيها من الهدى ودين الحق؛ لتجعل من هذه الأمم الإسلامية أمة واحدة ، ودينها واحد، وقبلتها واحدة، ولغتها واحدة، ومقومات

شخصيتها واحدة؛ ولتكون أمة وسطاً، ويكونوا شهداء على الناس.. فمن أراد أن يدخل في هذه العصبة الإسلامية، فعليه أن يعتقد دينها، وتبع شريعتها، ويهتدي بهديها، ويتعلم لغتها" تعليق له في الرسالة للشافعي/ ص 49

بهذا نجحت الدولة الإسلامية في جمع الكلمة، وصححت مسار الولاء، فجعلته للأمة الإسلامية، ولغتها، وأخذت نار العصبية، والقوميات الجاهلية، ويوم أن فرطت الدولة الإسلامية في هذه الأسباب، وأحيت النعرات القومية كان مصيرها إلى الزوال، والتفرق بعد الجمع، والضعف والهوان بعد القوة والعزة.

البعد الثالث: العدل، والمساواة:

من أبرز القيم التي جاء الإسلام ليقررها، ويعززها في المجتمع الإسلامي العدل، وهذا البعد يتداخل في كثير من قضاياها مع البعد الثاني الوحدة؛ لأن العدل ركيزة أساسية من الركائز التي تقوم عليها الوحدة، فلا وحدة، وتربط إلا بوجود العدل، ومتى ما أحس الفرد في أي مجتمع بظلم، فإنه سينقم على مجتمعه، ويحاول الانتصار لنفسه، ويجس في داخله بنوع من الغربة، والعزلة، والنفور من المجتمع.

والنصوص، والآثار التي تؤكد هذه القيمة أشهر من أتذكر، ففي مسند الإمام أحمد " حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ الْجُرَيْرِيُّ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَسْطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبْلَغْتُ "، قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: " أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ "، قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: " أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ "، قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: " أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ "، قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: " فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ " . قَالَ: وَلَا أَدْرِي قَالَ: أَوْ أَعْرَاضَكُمْ، أَمْ لَا . كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبْلَغْتُ "، قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: " لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْعَائِبَ " مسند أحمد ط الرسالة (38 / 474) / المكتبة الشاملة.

في هذا اليوم المشهود، وفي هذا الخطاب التاريخي للأمة يعلن الرسول صلى الله عليه وسلم مبدأ المساواة بين المسلمين، وأنهم لا يتفاضلون إلا بالتقوى أي بميزان الدين وحده مهما كل ما سواه من المعايير.

وقد تكون أشهر قصة، وأعظم حدث يدل على أهمية العدل، وتطبيقه في الدولة الإسلامية القصة التي ذكرها النسائي في سننه يقول: " أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَبَلَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى بْنِ أَعْيَنَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ إِسْحَقَ بْنِ رَاشِدٍ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا؟ قَالُوا: مَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا هَلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، أَهْمُ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِيمُ اللَّهِ، لَوْ سَرَقَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا" سنن النسائي (8 / 74) / المكتبة الشاملة.

ولكن ما علاقة النحو، وتعليم العربية في تعزيز هذا البعد (العدل) ؟

يجب على السياسي الذي يسعى إلى إقامة العدل، ويجهد في تحقيق المساواة بين أفراد دولته أن يبذل ما يستطيع في تحقيق التكافؤ في الفرص، والتكافؤ في التعليم بهذا تنجح إدارته للدولة، ويخلق التنافس الشريف بين الأفراد، والذي يعود للدولة بالخير. وعلى العكس تماما إن أحس الفرد بعدم التكافؤ، والتمييز حسب العرق، والجهة مما يكرس العداوة، وينشر الجهل، والتخلف؛ لأن معايير الاختيار تستبعد الأكفأ.

إنَّ من حق الأعاجم الذين دخلوا الإسلام ، ورجبوا فيه أن يُعلموا العربية، لغة الدين الإسلامي، لغة القرآن، ومن العدل تفقيهم في الدين كحال العرب، وأن تتاح لهم الفرصة لخدمة دينهم، وشرف نشره، والذب عنه، ولن يتم ذلك إلا بتعليمهم العربية.

وهذا ما حدث فعلا ف " ما خدم الإسلام أحد من غير العرب إلا بقدر حظهم من لغته، ولم يكن أحد من العرب في النسب يفرق بين سيبويه الفارسي النسب وأستاذه الخليل العربي في فضلها واجتهادها في خدمة اللغة، ولا بين البخاري الفارسي وأستاذه أحمد بن حنبل وإسحق بن راهوية العربيين في خدمة السنة، بل لم يخطر في بال أحد من سلف الأمة ولا خلفها قبل هذا العصر أن يأتي تفضيل كثير من الأعاجم في النسب على بعض أقرانهم وأساتذتهم من العرب فيما امتازوا به من خدمة هذا الدين ولغته، ولا نعرف أحدا من علماء الأعاجم له حظ من خدمة الإسلام وهو يجهل لغته، ولولا أن ظل علماء الدين في جميع الشعوب الإسلامية مجمعين على التعبؤ بقراءة القرآن المعجز للبشر بأسلوبه العربي وأذكار الصلاة وغيرها بالعربية ومدارسة التفسير والحديث بالعربية لضاع الإسلام في الأعاجم منها" الخلافة (1 / 100)

ففي هذا النص النفيس نجد أنه ساوى بين العالم من أصل عربي، والعالم من أصل غير عربي، وقد ذكر أن هذه المساواة بين العلماء حقيقة ثابتة عند المسلمين في العصور كلها، ولم يؤثر عنهم أنهم أخذوا من عالم؛ لأنه عربي، أو تركوا، واذموا عالماً؛ لأنه غير عربي.

نشر الإسلام العدل في الدولة الإسلامية، وبسط المساواة بين أفرادها، وألف بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً متحابين، بعد أن كانوا أعداء متنافرين، فكان من حق الدولة عليهم أن يساهموا جنباً إلى جنب في بنائها، والذب عنها من عدو يمتطي الخيل، ويلبس الدرع، وآخر يمتطي القلم، ويلبس العمامة، فالأول كان الجندي له بالمرصاد، والثاني كشف ستره، وبيّن خطره علماء هذه الأمة.

الخاتمة:

قد رأينا كيف ساعد النحو العربي في الحفاظ على الهوية الإسلامية، ولمسنا أثره في الوحدة فمن خلاله توسع مفهوم العروبة، فكان سبباً في تعزّب كثير من المسلمين الذين ساهموا في بناء الدولة الإسلامية.

و بعد شرح الأبعاد السياسية للنحو العربي لك أن تتخيل أهمية هذا النحو، وأنه كان ضرورة، فلولاها لما كُتبت هذه الأبعاد الاستمرار، ومتى ما أرادت الأمة أن تعود إلى سابق عهدها من عزة، وكرامة، ومحافضة لهويتها، ومن وحدة للأمة في عقيدتها، ولسانها، ومن نشر لدعوته، ولغتها= فستجد النحو العربي خير معين لها.

إننا إذا نظرنا في صنيع علمائنا، ورأينا ما حققوه، وتأمّلنا ما بنوه، و أدركنا مكاسبه، وأبعاده في كثير من المجالات تتصاغر نفسك أمامهم، و يتطأطأ رأسك خجلاً منهم، فلا تملك سوى الانبهار، والدعاء لهم، والعزم على مواصلة مشاريعهم، والنظر فيها، والاستمرار في تصويبها، وإصلاحها، وتقريبها للنشء حتى نورثها لمن بعدنا.

أما العجب فمن قوم تأثروا بحضارات مختلفة، وثاروا على حضارتهم، فحاكموا علماء الأمة على منهج تركوه؛ لأنه أصلاً لم يولد بعد في عهدهم فهو متأخر جداً عن عصورهم، ولأنه ثانياً لا يخدم أهدافهم، وأغراضهم، وشتان بين من أهدافه عالية، وطموحاته سامية يدرس اللغة ليحققها، ومن هدفه فضول علمي يدرس اللغة من أجلها.

لازلنا نسمع بين الفينة والأخرى انتقادات لعلمائنا ؛ لأنهم اتبعوا المنهج المعياري، وبذلك فرطوا في رصد كثير من الظواهر اللغوية، وأضاعوا كثيراً من اللغات، وإلى هؤلاء أقول ما أجمل النقد المبني على أسس علمية، فإنه في صالح الأمة، ومظهرٌ صحيّ، ودليلٌ على سير الأمة في الاتجاه الصحيح، ولكن في المقابل ما أقبح الصدى لما يقال هناك، و بئس النقد المبني على الأهواء، أو المبني على مقدمات خاطئة، فعلماء لديهم هدفٌ اتبعوا منهجاً يساعدهم على الوصول إليه، وتحقيقه، وقد تحقق، وقد تبين صحة طريقهم، وسلامة منهجهم، فكيف نلومهم على إتباع هذا المنهج، أو تركهم لمنهج لا يحقق هدفهم!

ومما يؤكد صحة منهجهم ما ذكره صاحب كتاب اللغة والهوية أنّ المعيارية دائماً ترتبط بالهوية القومية، ثم يقول " بما أن تفسير " لغة ما قومياً يغطي دائماً قدرًا كبيراً من التغيير في اللهجات. وفي بعض الحالات، مثل تلك المتعلقة ب " اللغة الصينية" تختلف اللهجات التي تندرج داخلها بعضها عن بعض، مثلما تختلف الإنجليزية عن السويدية. ويتطلب إدراك تخيل اللغة المعيارية، ومن ثم الحفاظ عليه، تأسيساً للمؤسسات، على نطاق واسع، وذلك من خلال المدارس، والتحرير، والقواميس، وكتب الصرف، والنحو، والنصوص المعتمد بها، ونظم الفحص والتوظيف، وأما على المستوى الضيق، فلا بد من اعتماد الجوائز، والتصحيحات، والتوبيخات، والمكافآت، والعقوبات. ومن المهام الملقاة على عاتق بعض هذه المؤسسات ترسيخ الأمة بطرق واضحة وعادية خصوصاً عبر المدارس، والنصوص المعتمد بها ذات الاهتمام بالتاريخ القومي، والتربية المدنية، و الأدب، وحتى البلاغة والنحو، اللذين يستعملونهما، ويوجد من وراء المؤسسات ذات النطاق الواسع قوى محرّكة عادة ما تتضمن واجباً نحو الأمة، وواجباً دينياً، أو هما معاً" جون جوزيف/ ص 285

إذا لا بد من شيئين تخيل اللغة المعيارية، والعمل على الحفاظ عليها، ونحن - والله الحمد- قد كُفينا الأولى، فهل نستطيع حمل الثانية، والقيام بها ؟

لو تأملنا النص السابق الذي ذكر فيه الكاتب كيفية الحفاظ على اللغة المعيارية لوجدنا مما عدده من أسباب الحفاظ على اللغة:

- تأسيس مؤسسات تعليمية (مدارس) تعنى باللغة المعيارية.
 - دعم مشاريع بحثية، تُعنى بالنظر في اللغة، والبحث فيها.
 - استكتاب كتاب للتأليف المدرسي، في جميع مستويات اللغة: المعجم، النحو، الأدب، البلاغة.
 - لجان فحص، وضبط تصحيح، وتدقق في المطبوعات، والمنشورات.
 - وأخير الثواب لمن أجاد، والعقاب على من خالف.
- وهذا لا يتم إلا بتضافر: العلماء، والقادة في الدولة يعملون جنبًا إلى جنب، العلماء بما عندهم من علم، والقادة بما يملكون من سلطان ومال.

إنّ على القادة في الدول العربية إتباع سلفهم إعادة النظر في سياساتهم اللغوية، وتصحيح مسارها، وتصويب خطئها، نحن في هذا العصر نفتقد إلى القرار السياسي الداعم للتخطيط اللغوي، فالمجامع اللغوية تمتلك القدرة على التخطيط للغة العربية، ولديها من الخبرة ما يكفي، بل الخطط موجودة في أروقة المجامع، وقابعة في رفوف المكتبات تحتاج إلى قرار سياسي ينفث فيها الحياة.

وأخيرًا توصي الدراسة بأبحاث مماثلة تكشف المكاسب، والأبعاد الأخرى: الاجتماعية، الاقتصادية، اللغوية للنحو، ونشأته؛ لنقنع الأجيال القادمة بجدوى دراسة النحو، وأهميته، ونكشف خطر إسقاطه، وتهميشه، والثورة عليه.

المصادر والمراجع:

- الأحكام السلطانية للماوردي / المكتبة الشاملة.
- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم/ ابن تيمية ت 728/ ت ناصر العقل/ الرياض/ مكتبة
الرشد
- إنباه الرواة على أنباه النحاة/ علي بن يوسف القفطي ت 646/ المكتبة الشاملة.
- أنساب الأشراف للبلاذري (11 / 200)/ المكتبة الشاملة
- بواكير الثقافة الإسلامية وحركة النقل والترجمة/ عصام الدين محمد علي/ الإسكندرية/ نشأة المعارف/ 1986م
- الجامعة العربية والجامعة الإسلامية/ محمد عمارة/ ضمن بحوث ندوة القومية العربية والإسلام/ مركز دراسات
الوحدة العربية/ ط الثانية 1982
- الخلافة/ محمد رشيد رضا/ المكتبة الشاملة.

- دليل السوسيولسانيات/ فلوريان كولماس / ترجمة: د خالد الأشهب ود: ماجدولين النيهي/ المنظمة العربية للترجمة/ بيروت 2009

- دولة الإسلام في الأندلس / محمد عبد الله عنان/ المكتبة الشاملة.

- الرسالة للشافعي / تحقيق أحمد شاکر/ بيروت/ دار الكتب العلمية.

- سؤال اللغة: الهوية زمن التحولات/ بحث ضمن كتاب آفاق اللسانيات / مركز دراسات الوحدة العربية/ بيروت

2011

- سنن أبي داود / المكتبة الشاملة.

- سنن النسائي / المكتبة الشاملة.

- صحيح البخاري/ المكتبة الشاملة.

- العرب والانتحار اللغوي/ عبد السلام المسدي/ دار الكتاب الجديد المتحدة/ الطبعة الأولى 2011

- اللغة والهوية في معركة الحضارة/ محمد محمد داود / اللغة العربية في الداخل الفلسطيني بين التمكين

والارتقاء/مركز الدراسات المعاصرة / الطبعة الأولى 1430هـ

- اللغة بين القومية والعالمية/ إبراهيم أنيس/ دار المعارف بمصر.

- الفرنكفونية والسياسة اللغوية والتعليمية الفرنسية بالمغرب/ ترجمة وتعليق عبدالعلي الودغيري / كتاب العلم/ ط

الأولى 1993

- مجموع الفتاوى/ ابن تيمية/ المكتبة الشاملة.

- مسند أحمد/ ط الرسالة / المكتبة الشاملة.

- مصنف ابن أبي شيبة / المكتبة الشاملة .